الجميلة والوحش

. نزيه أبو عفش .

... فإذنْ، مَنْ أنا كي أقولَ لنفسي: سأفتحُ هذا العماءَ وأُخضعهُ بذراعي وأسلحتي؟

مَنْ أنا كي أَمُدَّ بساطَ صَلاتي على الأرضِ ثم أُروِّضَها بصياحي وأُوجِعَها بسنابكِ خيلي؟

ومَنْ... كي أقول: أنا سيّدُ الأرضِ، أَفْتحُ أحشاءها بالحرابِ، وأُطْلِق فيها كلابَ برابرتي وسُعاةَ جيوشي؟!

مَنْ أنا كي...

ومنذا الذي قال لي: أنتَ ربُّ الخليقةِ.. تَدْخلها سالمًا وتفارقها غانمًا. أنتَ ربُّ النباتاتِ والوحش، ربُّ العناكبِ، ربُّ السعادينِ والطيرِ والنورِ والبيلسانْ

أنتَ ربُّ الزمانِ وربُّ المكانْ

خالدٌ في جنونكَ، في ظمإِ الوحشِ، في شفرةِ السيفِ ـ عمياءَ ـ تَشْحذها برقابِ الوعودِ وتَغْسلها بدمِ الأرضِ (ما أَحزنَ الأرضَ!) تَقْطفُ ما شئتَ من روحها كي تجرِّبَ حظَّكَ في لعبةِ الموتِ (ما أَحزنَ الأرضَ!) تقْطفُ ما شئتَ من روحها وتُقطِّرهُ في أواني الزجاجِ الكريمِ.. وتَقْطفُ ما شئتَ من روحها وتُحنِّطهُ في ظلامِ النعوشِ..

لا لشيءٍ سوى أن تجرِّبَ حظَّكَ في لعبةِ الموتِ، ثم تغادرها سالمًا غانمًا، تتوهّجُ عيناكَ مِنْ شهوةِ الصولجانِ.. وقلبُكَ يصطكُّ من هَيَجانِ العروشِ!؟

: مَنْ أنا؟

ربما كنتُ من قبلُ صفصافةً

ربما حجرًا أو شهابًا

ربما كنتُ طيرًا بغمّازَتَيْ ذهبٍ حلوتيْن وقلبٍ حكيمٍ.

ربما وردةً، أفعوانًا، سفرجلةً، نرجسًا عاشقًا تتلألأُ ضحكتُهُ فوق ماءِ البحيرةِ زرقاءَ زرقاء.. يَصْقلها بلعابِ الأغاني ويُطْلقها في الهواءِ الكسولِ كما يُطلِقُ النجمُ أنفاسَهُ.

ربما ثعلبًا يتزحلق تحت الظلامِ البتولِ؛ غزالاً ترنُّ حوافرُهُ البيضُ فوق لحافِ الطبيعةِ لألاءةً ومرصَّعةً ذهبًا كنعالِ الأميراتِ.

يا لَلْغزالْ!

يا لَعطرِ التفاتَتِه! يا لَبسمتِه الوردِ! يا لَنعالِ الأميراتِ.

يا للغزالْ

يا لهُ! يا لَفطنةِ أعضائه. يا لَضحكةِ عينيْه ـ دمعتِه.. تترقرقُ تحت شموسِ النهارِ فيرسلها عَتَبًا مائعًا.

يا لهُ: يتصيَّدُ عشبَ الحياةِ بأهدابِه.. ويُنَقّي الطبيعةَ من هَفواتِ الطبيعةِ.

يا للغزالِ الغزالْ

طائفًا كرسولٍ على صهوةِ الأرضِ، يَلْسعها برنينِ حوافِره ويُلمِّع أقمارَها بالدموعِ

ويا للغزالْ!

يا لهُ.. ولَهُ!

كنتُ ـ إذ كنتُ ـ أَجْريتُ سيفيَ في نَحْرِهِ.. فاقتلعتُ لهاةَ الأنينِ وفَتَّتُّ أَوْعيةَ النورِ

قلتُ: انتهتْ حيرتي، وانتهتْ حيرةُ النورِ

قلتُ...؛

فأَلْفَيتُهُ طالعًا من دخانِ ضميري يعاتبني ويؤنِّبُ رعشةَ سيفي وضعفَ ذراعَيَّ.

قلتُ: فمن أنتَ؟!

قالَ: الجمالُ.

الجمالُ الذي لا يموتُ

الجمالُ اليتيمُ، الجمالُ الحزينُ، الجمالُ الضعيفُ القويُّ، الجمالُ الذي أنتَ فِكْرتُهُ ولَطافةُ مغزاهُ..

قالَ!

فقلتُ: إذنْ ستموتُ. وقلتُ: تموتُ إلى أبد الدهرِ يا ذا الرسول اليتيمُ، الضعيفُ، الخجولُ، البتولُ، الـ... جمالْ

قلتُ: مُتْ.

قالَ: لا يبلغُ الموتُ قلبي.

فأَجْريتُ سيفيَ في بؤبؤَيْ قلبِه: مُتْ ومُتْ.

ثم أَجريتُ سيفي

فأجريتُ غصَّتَهُ ـ دمعةَ النورِ

: مُتْ.

ثم ألقيتُ سيفي على وردِ جثمانه.. وتحسَّرتُ:

يا للقتيلِ اليتيمِ

القتيلِ الحزينِ

القتيلِ الجميلِ

قتيلي الـ... جمالْ!

قلتُ: مُتْ.

..

فإذنْ: مَنْ أنا؟!

....

....

ربما كنتُ نوراً يرفُّ على حافَّةِ الكونِ، أو ربما الغيمَ يَشردُ فوق نعاسِ الخليقةِ..

بل ربّما كنتُ نفسي

تَتقطَّر بيضاءَ مصبوبةً في عجينِ التراب الذكيّ وطالعةً من خلايا البنفسجِ

حمراءَ صفراءَ زرقاء بيضاءَ..

لكنَّني، فجأةً، أتفقَّدُ نفسي فلا أتعرَّف فيها عليها!

إذنْ: مَنْ أنا يا أنايَ الحكيمْ

مَنْ أنا يا أبي؟

نوحُ؟

قابيلُ؟

يونانُ؟

يوسفُ؟

فرعونُ؟

عيسى المسيحْ؟

أمْ غرابٌ ينوحُ على قبرِ هابيلْ؟

أمْ شبحي طالعًا من ظلامي، يهبُّ على حيرةِ الكائناتِ هبوبَ المنايا.. ويتركُ لعنةَ أسلافِه تتفتّحُ موتًا على سقفِ هذا الزمانِ الجريحْ؟

أم أنا الناسُ كلّهمو؟!

من أنا؟ ولماذا...

أَتفقَّدُ نفسي فلا أتعرَّف فيها عليها؟!

مَنْ أنا وأنا؟

محضُ وحشٍ حزينٍ يدبُّ على سطحِ هذا الخرابِ، فلا القلبُ قلبُ الغزالِ ولا العطرُ عطرُ السفرجلِ

وحشٌ.. ولا حكمتي حكمةُ الطيرِ

وحشٌ حزينٌ..

وأَنْسَلُّ كالطيرِ تحت قميصِ السماءِ فلا أجدُ الآن ريشي!

فإذنْ: مَنْ أنا يا أنايْ

يا ابنَ قلبِ الغزالِ وريشِ الطيورْ...

مَنْ أنا؟

ربما لم أكن أحدًا

لا الغزالَ ولا الطيرَ

لا الذئبَ

لا الأقحوانَ العفيفَ ولا شهقةَ العطرِ في برعمِ الوردِ.

بي ظمأُ الموتِ.

ما لي نصيرٌ سوايَ، ولا تحت جلديَ من شهوةٍ غيرُ

ما يشتهي الوحشُ.

أَنهضُ من قاعِ نفسي وحيدًا

وأرشُقُ سهمي عاليًا وبعيدًا

فأحسبني خالدًا وسعيدًا.

فأمشي..

أَمصُّ رحيقَ العظم، وأرعى دمًا وترابًا

وأمشي..

قادرًا، مستبدًّا، وحيدًا، وتملأني صيحةُ الوحشِ

أُطْلقُها في المتاهِ العظيم فلا أتبيَّنُ خلفَ ملامحِ موتايَ إلاّ دَمامةَ موتايَ!

أُطْلقُها عاليًا وبعيدًا

فلا أتبيَّنُ في ذعرِ موتايَ آلامَ موتايَ!

أُطْلقُها عاليًا وبعيدًا.. وأعوي:

إنهضي يا كراهيتي من ظلامكِ واستيقظي يا وحوشي

إنهضي الآن كي يَكْمُلَ العيدُ بي وبما أستطيع من الدمِ؛

بي وبآلامِ موتايَ؛ بي وبآلامِ هذي العناصر؛ بي.. خالدًا وسعيدًا؛ وبي.. خائفًا وشريدًا؛ وبي.. قاتلاً ووحيدًا؛ وبي.. نادمًا أو...

ولكنْ

مَنْ أنا الآن؟

قُلْ.. مَنْ أنا يا أنايَ العظيم إذا كنتُ لستُ الغزالَ ولا الطيرَ، لستُ الفلاةَ ولا ذئبَها، لستُ هذي الحجارةَ، لستُ النيابيعَ، لستُ سوى عطشي وظلامي الكتيمِ!

أنا كلُّ ما لا يُرى أو يُشَمُّ.

أنا الزمنُ الآبُ والحيرةُ الأمُّ.

ما لي سماءٌ لأحْلُمها:

خندقي حُلمي،

ولهاثي

حيرةُ الكائناتِ،

وصوتي

صدى جريانِ الزمانِ على صخرةِ الأرض!

لستُ سوايَ:

ضعيفٌ ومستوحشٌ..

ظالمٌ وعطوفٌ..

حكيمٌ وأعمى.. ولا أتبيَّنُ في ضعفِ نفسي نباهةَ نفسي وعفَتَها.

أتسكَّعُ خلف ظلامي كمن يتسكّع في موته؛ ممسكًا بيديْ (هكذا...) خائفًا، تعسًا، ضائعًا في نسيجِ الزمان العظيم، أُرقّع سقفَ الظلام بخوفي وأشربُ أنخابَ صانعه. ثم أَلتفُّ حولي وحولي وأسألني: من أنا؟!

ثم أمضي إلى ما «أنا»..

وأنا.. خالدٌ في سؤالي

خلودَ العذابِ على الأرضِ.

نَمْ يا أنايَ إذنْ

نمْ حبيبي إذنْ..

وإذنْ:

دُلَّني كي أراني

❖ ❖

❖ ❖

فإذنْ: دُلّني كي أراني

دُلَّ قلبي إليّ

دُلَّ جذري الحزينَ إلى مَنْبتِ البربريّ الحزينْ..

دُلَّ مائي إلى رَحِمي

دُلَّ حوّاءَ أمي إلى حيرتي

أو فَدُلَّ عظامي إلى عرشها.

دُلَّ حوّاءَ أُمِّي إليَّ

دُلّها كي أراني

أتشرّدُ في جنّتي عاريًا

أتَصيَّدُ ما أشتهي من جمالٍ وفاكهةٍ وخلودٍ

وأطلبُ حوّاءَ...

أَسبحُ في نورِ أعضائها الموجعاتِ

فتَعْرَقُ روحي من الخوفِ..

ثم، كأنْ مَسَّني نورها:

غصّةٌ تحت قلبي تحكُّ ضلوعَ الغراب الكفيفِ

فيلسعني نورُ حوّاءَ.

حوّاءُ بابُ المشيئةِ، عطرُ الخطيئاتِ، حاضنةُ النورِ

حواءُ عينُ الكفيفِ، وتفاحةُ الوحشِ تَطْلع من ظمإِ الوحشِ أو تُطْلِع النارَ من عظمه..

دُلَّها.

دُلَّ أمي إلى ضلعها

دُلَّ بنتَ ضلوعي إلى بابِ حيرتِها

دُلَّها.. كي أراني

مسجًّى على لحمها الوردِ

آكلُهُ بحناني

وأنعسُ فوق حريرِ مباهجها

مثلما ينعسُ الذئبُ.

بل: دُلّني كي أرانا.

❖ ❖

❖ ❖

... وإذنْ: يا أبايَ الذي... يا أبايْ

لكأنْ كان لا بدّ لي من ضلوعي

لكي تتفتّح حواءُ منها فأعبدَها..

ثم أقتلَها في الصباحِ وأعبدَها

ثم أقتلَها. ثم...

: يا روحَ حواءَ هبّي على الصخرِ. هبّي على الماء. هبّي على جسدي وعلى جسدِ الأرض. هبّي على قسوة الوحشِ يا أُمَّهُ البِكرَ. هبّي، وهبّي، وهبّي على جَزَعِ العالَمينْ...

ضَوِّئي بعظيمِ خطاياكِ هذا العماءَ الحزينَ، وحَلّي تعاستهُ بلعابكِ.

هبّي على ظلمةِ الملكِ الوحشِ.

هبّي وهبّي ودُلّي أخاكِ الكفيفَ إلى مهرجانِ سريركِ.

هزّيه فوق سريركِ. هزّيه واعتَصريه بأنيابِ عطفكِ. هزّيه واعتصريه لكي يَخرجَ الليلُ من روحِه العتْمِ. هزّيه فوق سريركِ. هزّيه يومًا ويومَيْنِ... دهرًا ودهرَيْنِ. هزّيه واقتحميه. وهزّيه وامتحنيه. وهزّيه حتى تفوحَ البشاشةُ من عَظمِه وتضيءَ المحبةُ عينيْه.. هزّيه.

هَزّيه يا أمّهُ البِكرَ، هزّيه...

هزّي وحشةَ الذئبِ فيه

وهزّي خجلَ الذئبِ.

وليفرحِ الذئبُ.

: هذا أنايْ.

..

..

ذا أنايَ.. وهذا أنا

نائمًا فوق وردِ حبيبي.

: نَمْ إذنْ يا حبيبي.

❖ ❖

❖ ❖

نَمْ حبيبي إذنْ.

نَمْ أخي وعدوّي.. ونَمْ يا أنا الحلْوُ.

نَمْ يا أناي المعذَّبَ. نَمْ يا أناي اليتيمَ ـ أنا الخوفِ. نامي جميعًا، ملائكةَ الطينِ. نامي، كلابي. ونَمْ، جَدّيَ الوحش. نَمْ أيُّها العطشُ المرُّ...

نامي، ذراعي. ونَمْ، جَزَعَ القلبِ.

ناموا.

ونَمْ يا أخي الضيفُ: هذا فراشي وهذي هداياي. لا تخشَ شيئًا ولا تبكِ. نحن جميعًا ضيوفٌ على لقمةِ الأرضِ؛ نحنُ: الطيورَ، النباتاتِ، وحشَ البراري وآلهةَ الغيمِ،

لُقمتُنا ندمٌ مالحٌ وشقاءٌ لذيذٌ.. فناموا.

جميعًا فناموا

فليس لنا غيرُنا كي نُكفْكف عن جسدِ الأرض ما سالَ من وجعِ الأرضِ...

ناموا وناموا

لتبرأَ تفاحةُ الأرضِ من ندمِ الأرضِ.

ناموا..

وناموا، جبابرتي وسعاةَ جيوشي.

ذا أنا، هفوةُ الماءِ والطين، عدتُ إلى رحمِ الوردةِ ـ الماءِ والطينِ.. فانهضْ، أنايَ الجميلَ. انهضي يا ملائكتي البيضَ. إنهضْ، حناني وضعفيَ. وانهضْ، هوائي ومائيَ. وانهضْ، ترابي وعشبيَ. وانهض، إلهي الجمالْ

ذا أنا عُدْتُ منّي إليّ فأبصرتُني خالدًا في حنانِ النباتِ ودمعةِ قلبِ الغزالْ

ذا أنا عُدتُ منّي فأبصرتُ نفسيَ

: إنهضْ، إلهي الجمالْ.

ذا أنا: ابنُ ربكَ، ابنكَ، ابنُ الجمالِ العظيمِ، هُزمتُ على بابه وأتوبُ إليه، فباركْ شجاعةَ ضعفيَ يا ذا الجمالُ العظيمُ، وقُمْ خالدًا... وضعيفًا... وأضعَفَ.

انهضْ وقُمْ يا الإلهُ ـ إلهي اليتيمَ العطوفَ الضعيف الجميلَ الـ... جمالْ.

ذا أنا ـ أنتَ ـ فانهضْ.. فأبرأ من قوتي وعمايَ وفولاذِ عقلي وأسئلتي ودمائيَ تنزفُ من لحمِ سيفي وتصدأ فوق حرابِ جيوشي

ذا أنا وهُزمتُ على بابكَ الـ..... بابِ نفسي.

ذا أنا، مثلما شاءني «أنتَ،» عارٍ ضعيفٌ وأجملُ ممّا تَصوَّرتُني في المناماتِ

: إنهضْ صديقي الجمالْ.

ذا أنا... ذا: الطفولةُ مأوايَ والعطفُ سيفي

فنامي إذنْ، حيرتي. نَمْ، جنونيَ. نَمْ، خوفَ نفسيَ. نامي، وحوشي...

ذا أنا: يتفتّتُ قَرنايَ... والعطرُ يَمْحو ظلامي.

وحوّاءُ تصقلُ أقمارَ قلبي الضعيفِ

فيضحكُ قلبي الضعيفُ

ويَطلعُ

من زَغَبِ الضعفِ

ريشي.

...

...

ذا أنا:

الضعفُ سيفي

وقلبيَ لؤلؤةُ الماءِ والطينِ

: نَمْ

يا

حبيبي.

دمشق

كانون الأول

آب ٢٠٠٢

في العدد القادم من الآداب

■ قصائد: مجيد الموسوي. ستار عبد الله...